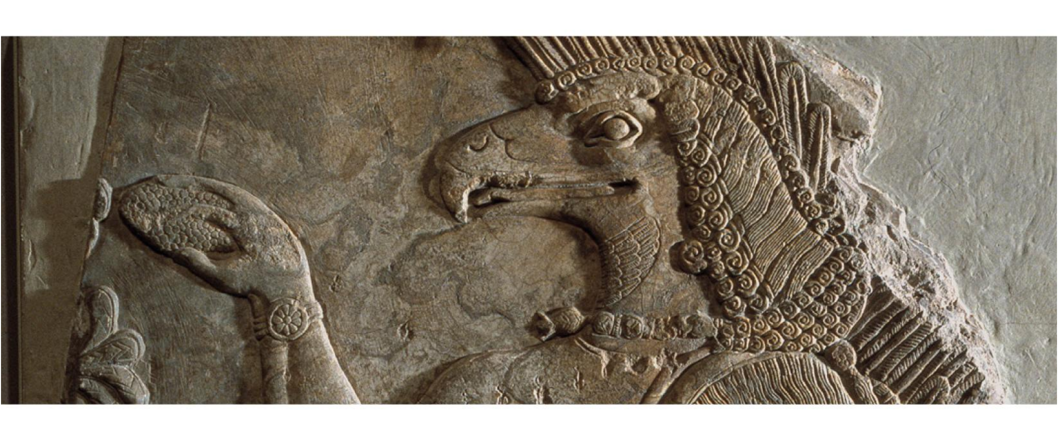
فضل خلف جبر

طق إصبع

مدوّنة أسطورية تمّ رفعها وترميمها
من بين أنقاض الذاكرة الجمعية العراقية





تصميم الغلاف والإخراج الداخلي
مايا سالم

فضل خلف جبر

طَقّ إصبع

مدوَّنة أسطورية تمَّ رفعها وترميمها
من بين أنقاض الذاكرة الجمعية العراقية



ولد فضل خلف جبر في عبادة التابعة لناحية الفهود جنوبيّ العراق العام 1960. يحمل إجازة في الترجمة من جامعة المستنصرية - بغداد 1987. صدر له في الشعر: «حالما أعبرُ النشيد» (1992)، «آثاريون» (1997). لديه العديد من المخطوطات غير المنشورة. يُقيم في الولايات المتحدة الأميركية منذ العام 1992.

الطبعة الأولى، 2011

دار الغاوون للنشر والتوزيع

لبنان، ص. ب: بيروت - الحمرا 113 - 5626

ت: 573886 71 961 +

U.S.A: 17953 Hanna st. Melvindale

MI 48122 - Tel:0013139089626

zeinab@alghawoon.com

www.alghawoon.com

الغاوون

اللوح الأول

الديباجة

الشَّعيرة التي ساوت بين الملك والخادم
الرجل والمرأة والشيخ والطفل
الغني والفقير والضعيف والقوي
المقيم والمسافر والذاهب والغادي
المريض والسليم والمتعبِّد وغير المتعبِّد
وكل من وهبته الآلهة القدرة على التسبيح بحمدهم
الطقس الذي ورد في أعلى أولويات مسلَّة حمورابي
في الأعمال الخالدة للملوك العظام وجبابرة العصور
وجرى عليه العراقيون غابراً عن غابر
طقّ إصبع!
تقليد السومريين المقدَّس
إنه ليس مجرَّد ممارسة شكلية
بقدر ما هو عملية تماس مع أمواج الغريزة الأولى
حيث تنبت أهازيج البهجة وخَدَر القهقهة
طق... طق... طق
ينهمر الأزل من سكونه
وتتجلَّى صفحات مطويَّة من غياب وجه الرنة

حيث للصوت رائحة الجمار
وللرنة عطر يفوح كما البرق في ثنايا الغيم
طق... طق... طق
زغردنَ يا بنات سومر
الآلهة سعداء في الأعالي
صدورهم عامرة بالفرح
وعيونهم مستغرقة في نوم هانئ وسعيد!

اللوح الثاني

المُستَهَلُّ

ليس بالإمكان أفضل مما كان
سبحانك أيها المعبود الأعلى
وتباركتَ يا ذا السرور والغبطة
أيها المُعطي دون شروطٍ أو حدود
أعطيتنا أكثر مما نستحقُّ
ومنحتنا فوق ما نرجو
لك الحمد والثناء والقرابين العزيزة
لك دموعنا التي لا تنضب
ودماؤنا التي لا تجفُّ
وأحزاننا السرمدية
وتضرُّعاتنا المتواصلة أوان الليل والنهار
أيها الإله المتفرِّد طقّ إصبع
يا سليل الآلهة العظام في السماء والأرض
تقبَّل قرابين ليلنا ونهارنا
لك صلواتنا المخلصة
لك أدعيتنا وأناشيدنا وتهجُّداتنا
من شروق أوتو الجبَّار في الأعالي

حتى الطلوع المبارك لإنليل المُعظَّم

آمين

اللوح الثالث

مولد إله

جرياً على عادة قديمة
سنَّها الأسلاف العظام أبناء سومر وأكد
وحواضر بابل وآشور والأمصار التابعة
وسطَّروها على مسلَّاتهم ومدوَّناتهم الأبدية
كانت الأسرة السومرية تقيم احتفالاً
لحظة ولادة طفل، أيّ طفل
وتبدأ طقوس الفرح تقرُّباً من الإله العرَّاب
إله الفرح والسرور السومري
استعادة لذكرى ولادة الإله السعيد طقّ إصبع
الإله الذي كان ثمرة الزواج المقدَّس
بين الإله المغامر الشجاع أكثر مما تظنُّون،
رئيس المجمع العلوي للآلهة المرحين
والآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة،
ابنة الملاك دعه يموت من الغيظ
رسول الآلهة إلى العالم السفلي
والذي يُمضي نصف السنة الأول إلهاً حاكماً
ونصف السنة الثاني رسولاً إلهياً

يُنفِّذ الحاجات المختلفة لآلهة الكون
الزواج الكوني منقطع النظير
والذي حضره جميع أقطاب الآلهة
ودامت احتفالاته ومهرجاناته الباذخة
منذ إعلان الإلهَين زوجَين مقدَّسَين
حتى ولادة الطفل الذي تغيَّر مع ولادته كل شيء!

اللوح الرابع

طق إصبع

كانت الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة من أجمل آلهات الكون
وليس ذلك بمستغرب على الإطلاق،
فهي ابنة ذات الجدائل الواصلة بين السماء والأرض
الآلهة التي تحكم ثلاثة أرباع الكون
بجدائلها المرصَّعة باللازورد
وقد ورثت الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
كل ما تتمتَّع به أمُّها من جمال أخَّاذ وفتنة وقوَّة شخصية
وقد وقعت الآلهة ذات الواحد والعشرين ربيعاً في حب إله
من أثرياء الآلهة هو الإله ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
وكان هذا الإله الموسر المدلَّل يُنفِّذ لحبيبته كل ما تشتهيه
فهو سليل أسرة من طائفة ذوي الرؤوس الكبيرة
وكانوا متخصِّصين بصناعة العواصف الترابية والفيضانات والأوبئة
وقد شيَّدوا من ثرواتهم جبالاً عظيمة في بقاع مختلفة من الأرض
وكان من بين الأشياء التي حقَّقها لها الإله ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
هو تشييد جنائن معلَّقة في الهواء ما بين السماء والأرض
فكان أهل السماء يتطلَّعون إلى الأسفل

وأهل الأرض يتطلَّعون إلى الأعلى
من أجل الفرجة وإمتاع النظر
بهذه الأعجوبة الطائرة التي تُزيِّن السماء
إذ غالباً ما كانت تُقام الاحتفالات والمهرجانات
وحيث يُمضي الكثير من الآلهة أوقاتاً طيِّبة
في قصر أحب أرنبة أنفك وحدائقه الغنَّاء
وسبب التسمية أن الإله ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
كان مولعاً إلى حدود الجنون بأنف الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
وكان يقيم طقوساً خاصة لعبادة أنف الآلهة
التي كانت تُزيِّن أرنبة أنفها بقرط لازورد
أهدته لها أمُّها الآلهة ذات الجدائل الواصلة بين السماء والأرض
لكن الأمور لم تستمرّ على ما كانت عليه
فقد سئمت الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
من الإقامة في قصرها الفضائي
وأكثر ما كان يُزعجها هو العبادة الجنونية
التي يخصُّ بها حبيبها المفتون أرنبة أنفها
لكنها لم تكن لتجرؤ على التعبير عن مشاعرها
وقد رغبت ذات يوم أن تمضي في جولة حرَّة مع إحدى وصيفاتها
في بستان الآلهة لا تَبُحْ بالسرِّ أبداً
وهو بستان عجيب فريد في معماره وطرازه
وقد رُصفت أرضيَّته بالكامل بالجواهر النادرة والحجارة الكريمة

وجُلبت له الطيور المغرِّدة من جميع أنحاء العالم
وتفانى الآلهة الفنانون من أجل خلق أشجار عجيبة الثمر
تستقرّ بين يدَيك لمجرَّد أنك تنظر إليها وتشتهيها
على أن السرَّ الكبير الذي لا يعرفه إلا القليلون
هو أن بستان النزهة لم يكن في الحقيقة سوى إله عاشق
كان يُدعى بالاسم نفسه
قرَّر من شدَّة حبِّه للآلهة لا تبُحْ بالسرِّ أبداً
أن يحوِّل نفسه إلى بستان تتنزَّه فيه
وتُمضي فيه أجمل أوقاتها!
وشاء القدر أن يكون الإله أكثر مما تظنون
يجول في البستان ذاته أيضاً
وحين التقت العيون لأول مرَّة
شعر كل منهما بالعاطفة نحو الآخر
فتعارفا وتبادلا حديثاً ودَّ كل منهما ألا ينتهي
بعدها سار كل منهما في طريقه مبلبلَ الفكر
لكن الأمور في أحب أرنبة أنفك لم تعد على سابق عهدها
إذ شعرت الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة بالقلق وعدم الراحة
فقد ساورتها مشاعر غريبة لم تكن تعهدها
وكان هناك تجاذب قوَى لم يكن سهلاً السيطرة عليها
وحين استشارت أمّها الآلهة ذات الجدائل الواصلة بين السماء والأرض
في ما يمكن عمله وكيف تتصرَّف

أشارت عليها أمُّها بالتحلّي بالصبر وانتظار ما يحدث في الجهة الأخرى
أي انتظار ما يمكن أن يقوم به الإله أكثر مما تظنُّون
فهو الأجدر بالمبادرة
لترى إن كانت لديه المقدرة والعزم على أن يبرهن أنه جدير بها
وبالمقابل، فقد كانت الأمور تتسارع باطِّراد
من جانب الإله أكثر مما تظنُّون
فقد بلغ به الحب حداً لم يُمكِّنه من النوم والاستقرار
كان كثير الطواف في جنبات الكون
وكأنما يبحث عن إجابة مصيرية لسؤال ما
كان مستغرقاً في بحثه المضني
متطلِّعاً متسمِّعاً متحسِّساً مستحسناً معجباً
متألماً مطرباً ذائباً في صهير نار الوجد
لقد تغيَّرت الحياة بالنسبة إليه
ولم تعد الأمور كما كانت على سابق عهدها
قبل تقاطع الخطوات في بستان الآلهة لا تبُحْ بالسرِّ أبداً
لم تعد كذلك على الإطلاق
وكان السؤال الذي يُحيِّره هو أين سيجد مفتاح السر!
سرّ أن يقتحم قلاع المستحيل القائمة بين قلبَين
هو يعرف أنه أسير حبّها الذي لا فكاك منه
لكنه لم يكن واثقاً أن الأمور هكذا
في الجنائن المعلَّقة بين السماء والأرض!

اللوح الخامس

التحدّي

لكي يُقنع الإلهُ أكثر مما تظنُّون
الآلهةَ هيهات ذات الأسرار السبعة بحبِّه والارتباطِ به
والتخلِّي عن حبيبها ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
كان عليه أن يأتي بإعجاز
يفوق قدرة غريمه وسعة حيلته ووجاهته
المطلوب منه إثبات ذلك أمام الملأ
أنه من يستطيع إسعاد الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
والقادر على القيام بما لا يستطيع غيره القيام به
هو، إذاً، أمام المهمة الصعبة، إن لم تكن المستحيلة
فهو ليس بمواجهة الإله ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء وحده
إنما يواجه وحيداً كل طائفة ذوي الرؤوس الكبيرة
صُنَّاع العواصف الترابية والفيضانات والأوبئة
لكنه قبل تحدِّي نفسه
وأقسم بقداسة أمِّه الآلهة حاملة صولجان الشروق
أن يكسب هذه المغامرة،
حتى لو كانت مغامرته الأخيرة

لهذا فقد ابتكر تعويذة سحريَّة مذهلة
سمّاها طقّ إصبع
فقد راح الإله يطق إصبعه بحماسة ونشوة منقطعة النظير
بحيث وصل صوت الطقطقة الى أقصى ركن من أركان الكون الشاسع
فبدأت الكائنات تتقاطر من القاصي والداني
مشدودة بهذا الحبل السحري الآسر
كما لو أنها تستجيب لنداء مقدِّس يأتيها من مجاهل الغيب
وبدأ الجميع يدورون مشدوهين
حول الإله أكثر مما تظنُّون ذي النفوذ والقدرة العجيبة
والآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
وبعد فترة من الاستغراق في النشوة
بدأ كل من كان حاضراً بتقليد الإله أكثر مما تظنُّون
وهكذا بدأ الجميع يطقُّون الأصابع منتشين
مأخوذين بحلاوة ما يسمعون وما يفعلون
وما فتئت أن انعقدت في السماء سحابة عظيمة
وبدأ ينهمر منها صوت ليس مما اعتاد عليه أحد
حتى تمحورت الكائنات حول ذلك الصوت الغامض
الصوت الذي يُدغدغ مشاعر الواحد
حتى ليظن أنه يطير على جناح فراشة
في أفق من حرير وزنبق
وحين تيقن الإله أكثر مما تظنُّون

من أن الجميع قد التحقَ بدورة الارتقاء الكلِّي
وأن العالم اللحظة قد تركَّز في بؤرة الجاذب الأكبر
في تلك اللحظة بالذات
أدرك الإله الطَّموح والتوَّاق والعاشق
أن تيَّار النهر يجري باتجاه الغاية المطلوبة
وأن لحظة البداية قد حانت
وأن عليه أن يقدم على ما يجب عمله
عندها توجَّه إلى الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة خاطباً
وإلى جميع الكائنات ليكونوا شهود خطبته
وقد ساد الكون سكونٌ عجيب
فقد كفَّ الصوت عن الهطول وصار رذاذاً أرجوانيَّ اللون
وسكن خفقان أجنحة الآلهة وهمهماتهم وصاروا مجرَّد آذان صاغية!

اللوح السادس

الخطبة

أيتها السماوية المتحدِّرة من صلب أعيان الآلهة المجيدة
يا ابنة الإله دعه يموت من الغيظ الجبَّار
والآلهة ذات الجدائل الواصلة بين السماء والأرض المبجَّلة
أخاطبك باسم قلبي الذي لم يخفق بالحب لسواك
وباسم عينيَّ اللتين لم تُبصرا جمالاً ببهاء جمالك
وباسم أصابعي التي لم تعرف طق الإصبع من قبل
وباسم كل هؤلاء الذين حولنا
والذين جاءوا ليباركوا هذه اللحظات المقدَّسة
إنني أتقدَّم إليك، أيتها الآلهة عالية الجناب
بكل ما تحمله حواسّي من نشوة بحضورك الفاتن
وبكل ما أكنُّه لك من عاطفة تفوق الوصف
أن تقبلي طلبي ليدك المنزَّهة
وأن تتخذيني راعياً لجمالك السماوي
حريصاً على تلبية طلباتك التي أعدُّها فروضاً
متفانياً في خدمة جدائل أمِّك المبجَّلة
ومهتماً بالعربات السماوية لأبيك الجبَّار
فهل تقبلين خطبتي

وهل تحقِّقين حلمي الذي رافقني
منذ أول مرَّة تقاطعت فيها خطواتنا
ونحن نتنزَّه في بستان الآلهة لا تبُحْ بالسرِّ أبداً
وإلى هذه اللحظة القَدَرية
التي أرجو ألا يطول انتظاري بعدها!
أجيبي سؤالي بحق الصُّدفة التي اختارت قَدَرنا نحن الاثنَين!

اللوح السابع

بانتظار القرار

بعدما أنهى الإله أكثر مما تظنُّون خطبته
رانَ صمتٌ مطبق على الجميع
بانتظار ما تقرِّره الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
أمَّا ما كان من أمر الآلهة
فإنها نظرت ذات اليمين وذات الشمال
بحثاً عن عينَي أبيها وجبينه
ثم عينَي أمِّها وجبينها
فوجدت أن عينَي أبيها متألقتان فرحاً
ووجدت أن جبينه مرفوع بكبرياء إله فخور
ووجدت أن عينَي أمِّها متألقتان جذلاً
ووجدت أن جبينها مرفوع بكبرياء آلهة فخورة
كل هذا وجميع الخلائق حابسة الأنفاس
بانتظار ما تتَّخذه الآلهة المُخيَّرة بين حبيبَين وقدرَين
تطلعت الآلهة ذات الأسرار السبعة إلى الحشود من حولها
وأغمضت عينَيها للحظة كما لو كانت قرناً بأكمله:
أيها الألق الغافي بين جانبَي الطريق السرمدي
خذ بيدي إلى حيث النقطة المضيئة في دائرة حسن الفهم

أعرف كيف أمتشق الرغبة من جدول الكناية
لكنني ما زلت قاصراً في إدراك فهم المكنونات العليَّة
أريد ما لم تحط به آلهة من قبل ولم يخطر على بال مطلع باليقين
أريد سلَّة العنب التي ورد ذكرها في صلوات القدِّيسين
وأريد الحبيب الذي يُموسقني أغنية ويُهدهدني بأفواف الليلك
خذوا بيدي أيها الآلهة إلى دروب الفرح الذي لا تتخلَّله شائبة!

اللوح الثامن

القرار

حين فتحت الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة عينَيها
وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام حبيبها الأول
ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
ووجدت وجهه مكفهراً كمداً
ووجدت عينَيه حائرتَين ولسانه متلجلجاً قلقاً
فتقدَّمت منه بكبرياء آلهة واثقة من نفسها
وخاطبته من دون سائر المخلوقات:
يا ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
أشهد أنك حبيبي الذي لم ألقَ منه إلا كل ما أحب وأشتهي
وأشهد أنك كنت أخاً لقلبي وأنيساً لروحي
لكنك ترى بأم عينَيك الإله أكثر مما تظنُّون
وقد ساق لمهري حب هذه المخلوقات كلّها
يا ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
كيف لي أن أقاوم إغراء مثل هذا الحب
إنه مهرٌ لا يُردُّ أن يُقدَّم لك حبُّ المخلوقات كلِّها
وإنني قبلتُ مهر أكثر مما تظنُّون
لأنه لا يعنيني بمفردي

بل يعني هؤلاء من حولنا جميعاً
فكلهم شركاء في هذه الرابطة
إنني أردُّ اليك، ومنذ اللحظة، كل هداياك الثمينة
وأستردُّ منك ما كان بيننا من عهود ومواثيق
فقد اتَّخذتُ قراري الذي لا رجعة فيه
وقد قبلتُ بالإله أكثر مما تظنُّون شريكاً لحياتي!

اللوح التاسع

أوتو الجبَّار مُبارِكاً

ما أن أتمَّت الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة كلامها
حتى دوَّى في الكون صوتٌ لم يشهد من قبل مثيلاً له
وقد أخذت الموجودين رعدةُ رهبةٍ لبعض الوقت
فلما انقشع الغبار الكونيُّ واتَّضحت الرؤية
تمكَّنت الكائنات من رؤية أوتو الجبَّار بكامل إهابه
وهو يتوسَّط المشهد الذي ازداد نصوعاً بوجوده
خرَّ الجميع خاشعين بحضوره البهيِّ
وتعالت أصوات التبجيل والتمجيد
لكن أوتو الجبَّار وضع حداً لكل هذا
حين توجَّه من فوره إلى حيث يقف الخطيبان
وأحاطهما بذراعَيه مخاطباً الجميع:
ليكن يومكما مباركاً
وليكن غدكما مباركاً
ولتكن منكما ذرية مباركة
هذا خاتمي القَدَري في يدي
وها أنا أختم على قلبَيكما بدوام السرور والبهجة
اليوم وغداً وحتى تفيض روحاكما إلى عالم البدء

مباركة أيامكم ولياليكم
سأدوِّن هذا في صفحات الضوء
إنني وفي يومنا هذا
باركتُ قلبَين يخفقان بالحب
فلتشهدوا معي جميعاً
في هذا اليوم الذي سيكون له شأن عظيم!
إنه أنا أوتو، جبَّار السماء والأرض، أُعلن بدأ مواسم البهجة!

اللوح العاشر

اشتباك الآلهة

لمْ تُتح الفرصة لأيٍّ من الحاضرين
أن ينتبه إلى الإله ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
وهو يشقُّ طريقه مغادراً المسرحَ الكونيَّ هذا
وشرر الغضب يتطاير من عينَيه
فقد كان الجميع يدورون في غمرة السعادة والحبور
التي شملهم بها الإله أوتو الجبَّار
لكن سرعان ما انتبه الجميع إلى غيابه
حين دوَّى انفجار هائل في السماء
وحين التفت الجميع إلى جهة الصوت
هالهم أن يبصروا أحب أرنبة أنفك الجميل
وهو يتطاير شظايا متفرِّقة
لتغمر جميع جنبات الكون
لقد امَّحت تلك الجنائن المعلَّقة الفريدة من الوجود
وأصبحت أثراً بعد عين
وكأن لم يكن لها أيُّ وجود من قبل
وكأنها لم تكن مآل الآلهة وواحة مسراتهم
حينها علتْ همهمات وأصوات الاحتجاج من كل صوب

وبدأ صوت التذمُّر والاستنكار يطغى على كل ما سواه
وانعقدت في السماء الغيومُ الداكنة التي يراها الناس لأول مرَّة
لتمنع الإله ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
من إفساد متعة مهرجان البهجة
لكن معركة حامية خفيَّة نشبت بين الإلهَين الغريمَين
منذ تلك اللحظة القَدَرية وحتى أبد الآبدين
فكلما حاول الإله ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء
مدَّ أذرعه الأخطبوطية التي تتجسَّد على هيئة البرق الساطع
ليختطف الالهة هيهات ذات الأسرار السبعة من الأرض
تصدَّى له الإله أكثر مما تظنُّون ليردعه ببسالة
متجسِّداً بهيئة الرعد المدوِّي
ليقطع الأذرع الأخطبوطية الساطعة التي تبحث عن حبيبته
متسبِّباً في هطول أمطار غزيرة
تمحو آثار الأقدام كافة
التي تتركها الإلهة هيهات ذات الأسرار السبعة على الأرض
فلا يمكن الاستدلال على مكان وجودها
ولا تتوقف المطار عن الهطول
حتى تكفّ أذرع البرق الأخطبوطية عن الخفقان
وحين يتأكد الإله أكثر مما تظنُّون تماماً
أن أخطبوط البرق ولَّى إلى مكامنه السرّية
يمتشق أصابعه كما يمتشق الساحر عصاه أو الراعي نايَه

ويبدأ بالترنُّم بأهزوجة جديدة
وطقَّة إصبع طازجة لم يسمع بها أحد من قبل
طق طق طق طق
فيخلد الكون إلى السكون والطمأنينة
سكون لا يقطعه سوى كركرات أطفال
يُعابث بعضهم البعض الآخر
وبالغون منهمكون بجمع عروق البرق
المنتشرة في الأرض
وتكديسها في مستودعات خاصة
لاستخدامها في أغراضهم اليومية:
الإضاءة والطهو وصيد الحيوانات الليليَّة

اللوح الحادي عشر

مفاجأة الآلهة لا تبُحْ بالسرِّ أبداً

ما أن توقَّف المطر عن الهطول
حتى تجرَّد في السماء قوس قزح خفقت لمرآه القلوب
إيذاناً بسلام موقَّت بين إلهَين شرسَين
وما هي إلا لحظات حتى تغيَّر مسار الأحداث
وعقدت الألسنة مفاجأةٌ كبرى أخرى لم تكن في الحسبان
فقد انشقَّ أمام الجميع طريق لازوردي
تُحيط جنباته نجوم صغيرة متلألئة
تومض بضوء يخطف الأبصار
وفي نهاية الطريق الذي صيغ من ألق
وقفت الآلهة لا تبُحْ بالسرِّ أبداً
جميلة، كثيرة الاعتداد بنفسها، وشامخة
وحين تأكدت أن الجميع يتطلع إليها
خاطبتهم قائلة:
«أيها الجبَّار أوتو
إنه لشرف لي ما بعده شرف
أن أوجِّه الدعوة إليك وإلى جميع مَن حضر عقد القِران هذا
لتشرِّفوني بالحضور إلى بستان النزهة

لإكمال مراسم البهجة
بزواج الإله أكثر مما تظنُّون
والآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
في بستان النزهة كان لقاؤهما الأول حيث انعقدت القلوب
وفي بستان النزهة ستتعانق الأرواح
أنه قدرهما المدوَّن في سجل الأبديَّة»
حين انتهت الآلهة لا تبُحْ بالسرِّ أبداً من كلامها
خاطبها أوتو الجبَّار قائلاً:
«مرحباً بك يا ربيبة النسر الذي يعشق الأعالي
بستانك مسرَّة ما بعدها مسرَّة
ودعوتك قُبلت وإني لفي شوق ولهفة
فلنسمع ما تراه الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة
والإله أكثر مما تظنُّون
فهما أولى بإبداء الرأي»
لكن أوتو الجبَّار لم يتمّ كلامه
حتى رأى الحشد الهائل من المخلوقات
وهو يغذُّ السير باتجاه بستان النزهة
فشعر أنه منشرح الصدر جداً
لذلك أطلق لعربته النورانية العنان في عمق السماء

اللوح الثاني عشر

المَخاض

ما أن اكتمل عقد المدعوين في بستان النزهة
حتى رأى الحاضرون شهاباً براقاً يشقُّ السماء
كان الوقت وقت الغروب
حيث يتهيَّأ أوتو الجبَّار للنزول إلى مخدعه في ما وراء الأفق
كان الشهاب يقترب شيئاً فشيئاً من بستان النزهة
وقد انشغل المدعوون عن طيّبات المآكل والمشارب
بالتحديق في هذا الزائر غير المتوقَّع
أهو إله جاء للمشاركة في الحفل
أم رسول جاء ينقل رسالة ما
وما هي إلا دقائق معدودة حتى غمر ضوء الشهاب البرَّاق
جنبات بستان النزهة كافة
ولم يرَ الحاضرون الشهاب وهو يسقط في أي مكان
بل سمعوا صوت هبوط ما
ثم لا شيء، لا شيء إطلاقاً أعقب الهبوط الغامض
لكن المفاجأة الكبيرة كانت
حين شعرت الآلهة هيهات ذات الأسرار السبعة بأن جاءها الطلق
ولم يُضِع الحاضرون وقتهم وصوابهم برمي الأسئلة

بل انشغلوا بأمر آخر تقتضيه الضرورة
هو التهيئة لاستقبال هذا المولود
الذي جاء بلمح البصر
أما الإله أكثر مما تظنُّون
فكان يعرف بالضبط ماذا عليه أن يفعل!
في مناسبة قد لا تتكرَّر مرَّتَين!

اللوح الثالث عشر

الصرخة المقدَّسة

في مدى لمح البصر
ارتسم في الآفاق شكل نجميٌّ عجيب
تشير أقواسه المدبَّبة إلى ثماني جهات
فقوس يشير إلى الشمال
وقوس يشير إلى شمال الشرق
وقوس يشير إلى شمال الغرب
وقوس يشير إلى الجنوب
وقوس يشير إلى جنوب الشرق
وقوس يشير إلى جنوب الغرب
وقوس يشير إلى عمق السماء
وقوس يشير إلى أعماق الأرض
وكانت الأنوار تتلألأ من هذه المشكاة المُدهشة
وتفيض من جنباتها كشلالات الماء
ومن اتِّجاهات الأقواس الثمانية
توافدت الجموع من كل جنس ولون وهيئة
آدميون لا يشبه بعضهم بعضاً
حيوانات لا يجمع بينها جامع

وطيور قلَّما وقعت عليها العينُ
وكائنات سماوية مجنَّحة وغير مجنَّحة
وكيانات من باطن الأرض أقرب ما تكون إلى الأشباح والأخيلة
وغير ذلك مما يعجز عنه الوصف
وفوق ذلك مما يفوق العدّ
جموع لها أول وليس لها آخر
كلّها جاءت تلبيةً لدعوة الإله أكثر مما تظنُّون
الدعوة التي حملها شفيع لا يردّ طق إصبع
طق... طق... طق
سمعها الجميع واضحة جليّة
وجاءوا مُسرعين ليشهدوا الحدث الأحب
أصاخوا السمع مرهفين
فخرجت عذبة صافية لا مراء فيها
صرخة الطفل الأولى
بهيجة كأريج أزهار البراري
ومضمَّخة بفرح الأهازيج كلِّها
طق... طق... طق

اللوح الرابع عشر

زغردن يا بنات سومر

زغردنَ يا بنات سومر
إنه الوليد الموعود
زغردنَ في الهور والريف والمدينة
في الفقر والغنى والمسغبة
في الجبل والوادي وما بينهما
في النوم والصحو والحلم واللجاجة
زغردن فرحاً وأثلجن صدور الآلهة
طق... طق... طق
وأنتم أيها الحالمون على أرائك الآلهة
أيها الكسبة والسمَّاكون وحمَّالو الأسواق وجامعو النفايات
تجَّار الأشياء الصغيرة والكبيرة ومروِّجو الفتن
حرفيُّو المعبد ومشعلو الحرائق في بيوت الآمنين
أنتن أيتها العوانس والأرامل في لياليكن وأيامكن الكالحة
أيها اليتامى وضحايا صراع الآلهة وحروبهم العبثية
أيها المُطبِّلون والمزمِّرون وماسحو أكتاف الآلهة وأحذيتهم
ابتهجوا جميعاً واستمتعوا بلذَّة الأحلام الطازجة
احلموا قبل أن تستفيق الحقائق الأخرى كلّها

طق... طق... طق
كل هذا المديح لك أيها المُبجَّل طق إصبع
منذ أول نخلة نبتت في سهول سومر
وحتى آخر قطرة حياة
تجري في شرايين دجلة والفرات
آمين

مسرد الآلهة

(أ)

1- ابن النخلة التي وُلدت على جرف الماء

هذا هو الاسم الذي عُرف به، فهو «ابن النخلة التي وُلدت على جرف الماء» والحبيب الأول لـ«هيهات ذات الأسرار السبعة». لا يُعرف الكثير حول نشأته سوى أنه الطفل المدلل الـذي ينتسب إلى طبقة «ذوي الرؤوس الكبيرة». لم ترد في السجلّات أية تفصيلات تتعلّق بهُويَّة الأب، وكل الذي ذكر في هذا الخصوص لا يتعدَّى الإشارات الغامضة المشوّشة.

2- أكثر مما تظنُّون

هو ابن «حاملة صولجان الشروق» وزوج «هيهات ذات الأسرار السبعة» وأبو «طق أصبع». تذكر المرويات المتكرِّرة في أكثر من مصدر أن «أكثر مما تظنُّون» هو ربَّما يكون ابن «أوتو الجبَّار». ليس هناك دليل قاطع، لكن «حاملة صولجان الشروق» كانت كثيرة التباهي بأن «أكثر مما تظنُّون» هو الوليد الشرعي لـ«أوتو الجبَّار». ومما يُعزِّز الاعتقاد، أن «أوتو الجبَّار» لم يحضر شخصياً أية مناسبة غير مناسبة زواج «أكثر مما تظنُّون».

3- إنليل المُعظَّم

هو إله القمر.

4- النخلة التي ولدت على جرف الماء

هي أم «ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء». ومن المشوّش في سيرة

هذه الإلهة انها لم تلد على جرف الماء على الإطلاق، إنما كانت وافدة من أحد الأقاليم الصحراوية المتاخمة لحاضرة أوروك. على أن الشائع في سيرتها أنها كانت كثيرة الإغراء وقد وقع في حبِّها الكثير من الآلهة. كانت كثيرة النفوذ ومتسلِّطة، وقيل إن تعداد من كان في خدمتها فاق عشرات الآلاف من الرجال والنساء. وهي من اللواتي نلن صفة الألوهية بالاكتساب وليس بالانتساب.

5- النسر الذي يعشق الأعالي

هو أبو «لا تبُحْ بالسرِّ أبداً». إله على شكل نسر. كثيراً ما رآه الناس محلِّقاً في السماء في دورات حلزونية لا تُعرف غايتها. مما عُرف به هذا الإله هو إنقاذ العديد من الناس من براثن الوحوش الكاسرة، حيث كان ينقضُّ في اللحظة المناسبة لانتشال الفريسة من بين براثن الأسود أو النمور أو غيرها من الحيوانات المفترسة. نال سمعة طيّبة وتقديراً من البشر والآلهة لانشغاله الدائم بتقديم المساعدة لمن يحتاجها.

6- أوتو الجبار

هو إله الشمس

(ب)

7- بستان النزهة

يعتبر «بستان النزهة» على رأس قائمة الآلهة التي حظيت بشعبيَّة منقطعة النظير على مرِّ العصور. وكان كثيراً ما يُقرن بـ«أوتو الجبار» و«إنليل المُعظَّم» بسبب مأثرته الخالدة في التضحية وتأسيس مذهب جديد في الحب. فلم يكن من المتعارف عليه أبداً أن يُقدم إله على الفناء حباً في سبيل المحبوب، وإنما المتعارف عليه أن يحدث العكس. وهو، وإن لم يفنَ حقاً بالمعنى المادي

للكلمة، فإنه إنما سمح لماهيَّته أن تتحوَّل من إله محدَّد الهُوية والخصوصية إلى مجموعة معقَّدة من الماهيَّات والخصوصيَّات المتداخلة كي يتمكن من إرضاء رغبات الحبيبة.

(ح)

8- حاملة صولجان الشروق

آلهة بديعة الجمال. وقد سُمِّيت بهذا الاسم لسطوعها فجراً في السماء. وهي أم «أكثر مما تظنُّون»، وكثيراً ما عقد الناس الصلة بينها وبين «أوتو الجبَّار»، وهو احتمال وارد جداً، لكن من الصعب تأكيده بالدليل.

(د)

9- دعه يموت من الغيظ

أبو «هيهات ذات الأسرار السبعة» وزوج «ذات الجدائل الواصلة بين السماء والأرض». شخصية هذا الإله غامضة إلى حدٍّ ما بسبب التداخل بين كونه إلهاً مطلقاً ورسولاً إلهياً. لا توجد الكثير من المرويات حول هذا الموضوع، لكن المرجح لدينا هو إما أنه وقع تحت لعنة إله خصم وإما تحت عقوبة من مجمع الآلهة العلوي «الأنوناكي». مع ذلك فقد كان يحظى بالكثير من الاحترام والتقدير بين صفوف الآلهة والبشر على حدٍّ سواء.

(ذ)

10- ذات الجدائل الواصلة بين السماء والأرض

أم «هيهات ذات الأسرار السبعة» وزوج «دعه يموت من الغيظ». عُرف عنها ولعها بجمع الاحجار الكريمة والمجوهرات على اختلاف أنواعها. وكان لديها

عدد كبير من المريدين والمتعبِّدين، وكانت مهمتهم أن يجمعوا لها نفائس المجوهرات من مواطنها الأصلية.

11- ذوو الرؤوس الكبيرة

تُعتبر هذه الطبقة هي الحلقة المفقودة بين طبقة «الأنوناكي: طبقة الآلهة التي تحكم السماء» و«الإيكيكي: طبقة الآلهة التي تحكم الأرض». لكن هذه الطبقة لم تحظَ بصفة القداسة على الإطلاق لتسبُّبها في كل الكوارث التي تُصيب البشر. فهم آلهة أنانيون جشعون ضيِّقو الأفق ولا يُفكِّرون بالقيام بأي عمل من أعمال الخير على الإطلاق.

(ط)

12- طق إصبع

تقليد عراقي يقوم على شبك أصابع اليدَين وإنتاج صوت من انزلاق إحدى السبَّابتَين على الأخرى بسبب الضغط. بتكرار الضربة نحصل على إيقاع موسيقي غالباً ما يُصاحب الدبكات الراقصة والأهازيج الشعبية ومواسم الأفراح والمناسبات السعيدة.

(ل)

13- لا تبُحْ بالسرِّ أبداً

هذه الآلهة غامضة بدءاً من اسمها وعلاقتها بـ«بستان النزهة». لكنها اكتسبت أهمية بسبب شعبية أبيها «النسر الذي يعشق الأعالي» وذيوع صيت بستانها «بستان النزهة»، والذي لا يعرف الناس أيَّ شيء حول خلفيته العجائبية ولا كيف تبلور إلى الوجود.

(هـ)

14- هيهات ذات الأسرار السبعة

أم «طق إصبع» وزوج «أكثر مما تظنُّون» وابنة «ذات الجدائل الواصلة بين السماء والأرض» و«دعه يموت من الغيظ». نشأت نشأة كريمة وقد عمد أبواها إلى استدعاء العديد من الآلهة المختصِّين لتلقينها الكثير من علوم وفنون الكون. من بين أسباب جفاف عاطفة الحب بينها وبين «ابن النخلة التي ولدت على جرف الماء» أنها كانت تريد إنجاب طفل، لكن حبيبها كان منصرفاً عن ذلك مكرِّساً كل عاطفته لعبادة أرنبة أنفها.

المحتويات